أفراح صغيرة

بقلم : أحمد عثمان بهلول

أجاز الكوبرى الذى يربط المدينة بالطريق المتفرع من نهاية الميانى ، ثم وقف عند المفرق ، وراح يمد بصره وسط الظلام يريد أن يبلغ به قريته البعيدة عنه مسافة اميال ثلاثة . وبقضى من الوقت ربع ساعة ، فنصف ساعة ، فساعة ، وكل دقيقة تثير فى ركابها دقيقة . والدقائق تعصر روحه المشوقة وقلبه الملهوف ، ولاتحمل بحيرته . ويتململ فى مكانه ، ويغرس تأملاته فى الظلمة الصارمة من حوالية لعله يلمح قادما يشاركه الطريق .

وتمر دقائق أخرى ، ويتحرك كل مافيه سوى قدميه ، انه مسمر فى مكانه فى انتظار معجزة تهبى حيرته ، سيارة ، أو عربة او اى شىء ، فقط هو يريد ان يبت بين أولاده ، ولكنه لايريد أن يجتاز الاميال الثلاثة الباقية من رحلته الطويلة وهو بمفرده ، ان الظلمة تحسم المخاوف والطريق الوراعى خال لايحرسه غير نقيق الضفادع ونباح الكلاب .

ومن حين لحين كان يلمع نور سيارة ، ويتحدد أمله ، ثم ما يلبث أن يترع امتعامه لانها مرت به ولم تحفل بوجوده ، ولو كان الطريق آمنا لسار على قدميه وحده ، ولكنه عاجز عن امتحان جسارته على اقتحام المخاطر . فاليوم أول الشهر ، وفى مثل هذه الساعة المتأخرة يحلو للاشقياء أن يتسللوا على اسطلات اودية السطاء وحيويهم ، وربما حياتهم ، ثم يتركون فريستهم عارية أو صريعة ، وبتخيل كل هذا فيرتعد ويتحسس جيبه فى هلع ، ثم يشعر بشىء من الراحة حين يطمئن الى ان الجنيهات العشرة مازالت فى حوزته . عشرة كاملة ، ماراد عنها من راتبه الذى تقاضاه فى اليوم من قرية «ام صابر» مقر عمله حتى مكان وقوفه ، وايضا .. انفق بضعة قروش فى ابتياع شىء من حيرات المدينة . اصابع صغير من الموز وقطوف حلوة من العنب . فمنذ أول كل شهر ، يكون كل البيت على موعد بلقاء حبيب أمه ، وأبوه ، وأولاده الثلاثة ، يسهم ولده الكسيح «رضاء» وحين يتذكره تتد عن صدره آهة ، هذا الصغير تحظى عامه الثالث ، ومازال لسانه عاطلا ، وساقه عاجزة ، ولكنه يتنشى كثيرا لاصابع

المور . مايكاد يرى اللفائف حتى يعرفها ويمتر محتواها ، ويملأ قبضته باصبعين لم تتجاوز العشرة عنهما ، ويهم ليطوحها في عمه في مرح ، فيتصاحك اخوته ، ويتصاحك الجد ، والجدة ، وفي غمرة من المؤانسة تصنع الاسرة افراحها الصغيرة .

ولكن ... هاهي الاميال الثلاثة تعطل افراحه ، انها سفر طويل في طريق موحش مشحون بالمخاوف ، والجميلات العشرة وحياته كلاهما في خطر لو خطا في الطريق خطوة واحدة ، ويلزمه أن يحمي حياته من اولاده فليس لهم سواه ، وأن يحمي حيواناته من اجل عوتهم ، وايضا ... لانها ثمن الغرق طيلة شهر عريض ، كيف يخاطر ؟ وهو يكاد يرى من خلال خواطره زوجته وهي تستقبله ، لها قلب الزوجة الوفية ولها عقل المرأة المدبرة ، ودائما هي تتفحص حيواناته بأناملها مثلما تعرفه شوقا بهمهماتها ، البيت كله منذ الصغر بتها لاستقباله بحيواناته ، كل شيء تتطلعه الزوجة وترتبه ، وتكنس كل الدار حتى مدخل الحارة ، وتخلع على الصغار اردية مغسولة ، وتنشر على الفرش الملاءة المحلاوي الملونة ، وحتى هي ... تنزع منها جلبابها الاسود . والاب الشيخ لايمل جلسة «المصطبة» طول النهار ليكون أول من يراى ولده . والام تنشغل باعداد طعام يشتهيه انهما ، والصغار يستلمون من الحركة النشطة ميقات ابيهم ، ومنذ رسل عنهم لم تتغير عادته في الوصول لهم قبل مغيب الشمس . فقط هذه المرة هي التي خانه الوقت فيها وليسه كله بمهمة فاخر بعاد سفره ، ولكنه تشبث بأن يقضي ليلته وسط اسرته ولو وصلها في منتصف الليل ، ومنتصف الليل لم يأت بعد . ممكن ان يكون بينهم قبل أن يثقل النوم عيونهم ، وتطبق جفونهم على قلوط دافئ من مودته . فقط توانيه معجزة . ويضيق من خواطره على ظلمة حالكة من حواليه وعلى الدقائق بلا توقف ، فيلعن ابتناسه ويتنظر .

ويحس يوخز في ذراعه ، فينبه الى اللفائف التي أثقلها كيزان الذرة المشوية واصابع المور وحبات العنب ، ومن قلب ابتناسه تسلل الى داخل نفسه ومضة ارتياح لانه لم ينس الكيزان التي يشتهيها ابوه . اكثر من اي شيء ، ان قربته مملوءة بالذرة الخضراء ، ولكن .. هذه مشوية على الفحم ولها طعم يتلذذ به الشيخ الصابر في السبعين ومازالت اسنانه قادرة على أن تهش الحبات في مهارة .

ويلتحي باللفائف ويضمها بحنانه ، ويريح قدميه ، ويجلس في انتظار الفرج ويشعل سيجاره ، وكأنه يحاول ان يهيم بأنعاسها على روحه القلقة . ومايكاد يستقر في مكانه حتى تمرق من امامه سيارة ، فينهض واقفا في هلع ، ويلوح بذراعيه في توسل ، ولكن ... من الذي يهتم لشيخ تشتق عنه الظلمة فجاة ؟

ويعود لجلسته ، ولفائف سجائره ، ويهتف لنفسه : مالحلك يا «أم صابر» هذه القرية الجديدة ، في الارض الجديدة في الحياة الجديدة التي دبت على سطح الرمال وسط الصحراء ، في اي مكان تقف وتشير بيدك لاية سيارة قادمة ، في اي وقت من الليل أو النهار ، تتوقف

د عرس خدماتها عليك ، وتحملك لاى
مكان مادمت فى طريقها ، وبلا اجر ،
وبلا تردد ، اسرة واحدة ، تعمل فى حقل
واحد ، وفى ساحة واحدة ، وتربطها
جديدة اسمها التعمير ، لايسالك السائق
من انت الا لتعرفك ، وفى لحظات
تتوالد صداقة جديدة ، وعاطفة جديدة
تربط الغرباء الذين وفدوا من كل بلد ،
ومن كل مركز ، متلمسا ربطهم العمل
الجديد ، وجمعهم الامل الجديد ساعد
واحد ، وعزم واحد ، وطاقة واحدة ،
ويوم عاد قريته مسقط راسه تركها
بلا مال ، او حتى قيراط ارز ، وضاقت
به وبقوت عياله قريته ، فكرى المدبرية
الجديدة ، ووجد العمل ، ووجد الرمل
الاصفر يتحول الى ارز احمر ، واحس
بانه يمتلك كل شىء ، وان كل المساحات
البعيدة من الحقول ، ومن الاشجار ،
ومن الثمار ملك له لانها من غرس يده
هو وكل الذين معه ، يحسون مثله العرق
يقطر من جباههم قوتا شريفا لهم
ولاولادهم ، الحياة حيث تركها حلوة
وسهلة ، وناسها هناك طيبون ، ليسوا
كهؤلاء الذين يعاملونه تاركين الانتظار
القلق يلهب ارتياحه .

ومن جديد تعمل سيارة ، وماكادت
الدوّامة تلمع حتى عشيت مكانه اضواء
ساطعة ، وكانها قبضة عاتية لطمت
حلكة الطريق بأراحتها فى قسر وفى
حركة مضطربة التى سيارته لايعرف
لماذا ، وريح بلوح من بعيد وقد اعترض
بكل كيانه السيارة التى اندلع نورها
ليشبه هذا المجنون الذى تسمر أمام
العجلات ، وقريبا منه توقف السائق ،
محيطا متوجسا ، وتفاجئه توسلات

سهوله فقد تضاعف الدموع ، وبعد
تردد حذر بين السائق ويعين ان
يحمله الثلاثة امتال بعير اخر ترام .

وبعد السيارة فى الغبار ، ويدير
سائقها جهاز الراديو ، فتتناهى الى
سمعهما اصوات تصح بالمرح والسعادة .
ويتذكر ان الليلة موعد حفل اول الشهر
حفل تسمر فيه مع عشاق فيها مطربة
كبيرة ، ولم يشترم لانه لايجد ثمن
التذكرة فى رحابها ، مجرد امنيه طافت
بخاطره للحظة ، ولكنه احس بروحه
معهم ، تصفق وتطرب مثل طربهم ، ومن
جديد يخرج علبة الدخان ، ويشعل
سجارة له واخرى للسائق الشوان
من الصوت البديع ، ويهمس للسائق فى
دعابة وكانه يشهده على حلم جميل
راوده فجاة ، بارين باسطى عندى
راديو ... بانحنك .

وتنهى المسافة ، ويهبط من
السيارة ، وينسى كل شىء فى الدنيا ،
الا انه سيلتقى باولاده ، وفى خطوات
اعماقه يتحرك راقصا مرعودا ، وينابع
مسيره فى دروب ضيقة لايخطئها .
ويلمع الدار ، وكل المشقات قد ابراحت
من صدره ، وفى رفق يدق الباب مرة
وثانية وثالثة ، واخيرا يفتح ، ويكاد
ينفجر بالضحك وروحه تعصر عينيها
براحتها وبسمة الترحاب على شفتيها
تغالب بها التعاس . وتتقدم من الكبار
الذى يضم كل الجماعة التى كانت فى
انتظاره ، وكانت طرقاته قد ايقظت
الكبار . اما الصغار فقد انحنى عليهم
يبارك عفويتهم وكانه يعتذر لهم بقبلاته
عن انتظارهم الطويل .

ورفع عنهم قامته ، ثم وقف واجما ان ذراعه ليست ثقيلة كما عهدها وهو على الطريق، ودار بعينيه حول الوجوه التي تطلعت اليه حين سكنت حركته فجأة .

وانطرق الى الارض بعد ان رسم على شفتيه شبه ابتسامة ، فقد استحلى ان يعتذر عن لفائفه التي نسيها في قلب الظلام .